

المبحث الثالث :

العلمانيون، وسبل مواجعتهم

المبحث الثالث

العلمانيون، وسبل مواجهتهم

العلمانيون أحد الأصناف الذين تقترحهم (راند) ضمن الشبكات الإسلامية (المعتدلة)؛ يقوموا بمواجهة الإسلام بتطبيقه الصحيح، القائم على الكتاب والسنة، والملتزم بهما، ويقوموا كذلك بتعزيز الجهود الداعية إلى الديمقراطية، وغير ذلك من الأهداف التي يسعى الغرب إلى تحقيقها.

وفيما يلي ثلاثة مطالب، تتضمن: التعريف بالعلمانية، وأسباب اختيار الولايات المتحدة الأمريكية والغرب للعلمانيين، والوسائل التي يسعى إليها الغرب لحماية العلمانية في البلدان الإسلامية.

المطلب الأول: تعريف العلمانية، ونشأتها، وبعض آثارها:

العلمانية -بفتح العين- نسبة محرّفة إلى العلم، بمعنى العالم، أي العالم الآني الدنيوي، ويقابله العالم الآخروي والغيبى^(١). وفي قاموس (أكسفورد): علماني: أي: دنيوي، ويقابله الديني^(٢).

وتُعرّف الموسوعة البريطانية العلمانية في الاصطلاح بأنها: حركة اجتماعية، تهدف إلى صرف الناس عن العناية بالآخرة، إلى العناية بالحياة الدنيا وحدها^(٣).

ويُعرّفها معجم (ويستر webster) الأمريكي، بأنها: «العقيدة التي ترى إبعاد الدين عن الحكومة، والتعليم، والأخلاق، أو أي مرافق عامة في المجتمع»^(٤).

ويعرّفها أحد الباحثين العرب، بأنها: «جعل المرجعية في تدبير العالم إنسانية خالصة، ومن داخل العالم، دونما تدخل من شريعة سماوية»^(٥).

فلُبّ العلمانية: «نبذ الدين وإقصاؤه عن الحياة العملية»^(٦).

(١) العلمانية: جذورها وأصولها، د. محمد علي البار، (دمشق، دار القلم، ١٤٢٩هـ)، ص ٢٦؛ والتيارات الوافدة وموقف الإسلام منها، ص ٨٠-٨١؛ وينظر: العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، أ.د. محمد البهي، (القاهرة، مجلة الأزهر، ١٤١٥هـ)، ص ١٦؛ والمعجم الوسيط، ص ٦٢٤؛ والعلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د. عبد الوهاب المسيري، ط ٣، (القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٨م)، ٥٧/١، ٦١.

(٢) The Oxford English-Arabic Dictionary.P. 1117 ؛ وينظر: المعجم الوسيط، ص ٦٢٤.

(٣) موقع الموسوعة البريطانية:

<http://www.britannica.com/EBchecked/topic/532006/secularism>

(٤) موقع معجم (ويستر): <http://www.learnersdictionary.com/search/secularism>

وقد أدى شيوع تعريف العلمانية باعتبارها: "فصل الدين عن الدولة"، إلى تسطيح القضية، وتقليص نطاقها. فالعلمانية أشمل من هذا. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١٥/١.

(٥) علمانية المدفع والإنجيل، ص ٥٠.

(٦) مذاهب فكرية معاصرة، د. محمد قطب، ط ٦، (القاهرة-بيروت، دار الشروق، ١٤١٢هـ)، ص ٤٤٦.

«وقد أدى هذا المفهوم للعلمانية إلى انحسار الدين وتراجعها، وإلى الفصل بين المجتمع والدين»^(١)، في المجتمعات الغربية.

وبعض العلمانيين العرب «قبلوا العلمانية الجزئية، وهي فصل الدين عن الدولة، ورفضوا العلمانية الشاملة التي ترفض الإله والغيبيات والدين وتعتمد إحلال منظومة كاملة من القيم والعلاقات الإنسانية بعيداً عن الدين»^(٢). على أن منهم من يلجأ لهذا ليُخفي مناقضة العلمانية للدين^(٣).

وبمراجعة الجذور التاريخية للعلمانية في أوروبا منذ إرهابات الثورة الفرنسية عام ١٢٠٣م/١٧٨٩م^(٤)، مع ما دلت عليه تعريفات العلمانية، يتبين «أن العلمانية ليست قاصرة على فصل الدين عن الدولة، بل إنها مخطط كامل يستهدف إقصاء الدين عن كل ميادين الفكر والحياة، ويتخذ منطلقاً لذلك من خلال الأنظمة السياسية الأساسية في مجال القوانين والتعليم والاقتصاد. ويقتضي ذلك أن تخلو دساتير هذه الأمة من أي انتماء ديني، أو اتخاذ شريعة الدين مصدراً لقوانينها.

فالغاية من وراء العلمانية ضخمة ومسيطرة على مختلف آفاق الفكر والحياة، ولكنها حينما تُعرض يُتَحاشى الكشف عن خطرها، أو مدلولها العميق، فيُكتفى بأن يقال: العلمانية هي حياد الدولة تجاه الدين»^(٥).

ورفضَ علماء المسلمين العلمانية؛ لمناقضتها للإسلام؛ فهي شرك في الربوبية، وشرك في الإلهية، واستحلال للحكم بغير ما أنزل الله تعالى^(٦).

(١) العلمانية للبار، ص ١١.

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١٦/١، ١٢١-١٢٤.

(٣) التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم: عرض ونقد، منى محمد بهي الدين الشافعي، (القاهرة، دار اليسر، ١٤٢٩هـ)، ص ٦٤.

(٤) ينظر: سقوط العلمانية، ص ٢٠-٢٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥.

(٦) مذاهب فكرية معاصرة، ص ٤٩٦-٤٩٩؛ والتيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، الكريم، ص ٦٤-٧٠.

والعلمانية هي وباء العصر^(١)، «وهؤلاء العلمانيون الذين يقولون: "لا إله"، "وما يهلكنا إلا الدهر"، ليسوا أمراً جديداً وبدعاً، فقد كان لهم أسلاف في العصور والأمم السابقة، وقد أخبرنا القرآن الكريم بما كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(٢)»^(٣).

«وقد أوضحت الآيات الكريمات من سورة البقرة المنهج الإيماني المناقض تماماً للمنهج العلماني: قال تعالى: ﴿الْم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤)»^(٥).

وأبان الله سبحانه أن ما يعمل به هؤلاء الدنيويون باطل، وأن صنعهم حابط، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦).

وكان ظهور العلمانيين في العصور الحديثة في أوروبا أولاً فيما يسمى عصر النهضة وعصر التنوير؛ نتيجة معارك طويلة وطاحنة مع الكنيسة التي وقفت -بفساد رجالها- ضد العلم، وضد حقوق الإنسان، وساندت النظام الإقطاعي، ثم النظام الاستعماري، وأغرقت أوروبا في بحار من الدماء^(٧). فظهرت العلمانية إلى الوجود بعد قيام الثورة الفرنسية سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م، وعلى

(١) التيارات الوافدة وموقف الإسلام منها، ص ٨٠.

(٢) سورة الجاثية، من الآية: ٢٤.

(٣) العلمانية للبار، ص ٥.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ١-٥.

(٥) العلمانية للبار، ص ٣٤.

(٦) سورة هود، الآيتان: ١٥-١٦.

(٧) العلمانية للبار، ص ٦، ٣٤؛ والتيارات الوافدة وموقف الإسلام منها، ص ٨١-٨٢.

وعلى أساسها قامت النهضة الأوروبية الحديثة^(١).

وهكذا ظهرت العلمانية في الغرب النصراني، بعد أن اصطلى بنار النصرانية الباطلة المحرفة، وعانى من فساد رجالها، ولم يكن له سبيل للخلاص من ذلك إلا بالعلمانية، أي بالقضاء على النصرانية ورجالها، وإبعادها عن حياة الناس جملة^(٢).

«ولا شك فإن ظهور العلمانية في الغرب والفصل بين الدين والحياة كان له ما يبرره من فساد العقيدة وتحريف الديانة والظلم الذي كان يمارسه الأقوياء على الضعفاء في البيئات الغربية، فإن هذه الظروف والشروط التاريخية ليس لها نظير في الإسلام، فعقيدة الأمة ومصادرها التشريعية لم يعتزها تحريف أو تبديل، ولم يكن لعلماء الدين سلطة طاغية في تاريخ الإسلام، فلا واسطة بين الناس وريهم، لا أسرار ولا احتكار لتفسير الدين، لذلك فليس لدعاة العلمانية في بلاد الإسلام حجة في نقل تجربة الغرب العلمانية إلى عالمنا الإسلامي»^(٣).

ولتلك كان تطبيق العلمانية في البلاد الغربية أسهل منه في البلاد الإسلامية؛ ولأن النصرانية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة. أما الدين الإسلامي فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق، فقد جاء بنظام شامل يمس حياة الإنسان في شتى نواحيها من المهد إلى اللحد، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية^(٤).

فإذا صحت دعوى العلمانيين في الغرب بأنهم استطاعوا أن يتعايشوا مع الدين الكنسي، ويتعايش معهم دون تدخل أحدهما في شؤون الآخر، فإنها بالنسبة للإسلام لا تصح على الإطلاق^(٥)؛ لما سبق من التعليل آنفا.

(١) دراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة، ص ١٢٩.

(٢) التيارات الوافدة وموقف الإسلام منها، ص ٨٢.

(٣) دراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة، ص ١٢٩-١٣٠.

(٤) سقوط العلمانية، ص ١٤٥.

(٥) مذاهب فكرية معاصرة، ص ٤٤٦.

ولا مجال للعلمانية في حياة المسلم ولا طرفة عين؛ لأن حياته كلها لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٣) لَا شَرِيكَ لَهُ. وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^(١). والإسلام دين حق، شرعه الله تعالى، ولم يزل كما شرعه، لم يدخله تحريف ولا تبديل، وليس بين المسلمين وبين دينهم واسطة أو سلطة من العلماء أو العباد، فلا سلطة لأحد، وإنما السلطة للكتاب والسنة.

لكن لما تردت أحوال المسلمين، وضعف إيمانهم، وتمكن منهم الاستعمار، وفدت عليهم العلمانية في أكثر المجتمعات الإسلامية، واستحكمت في بعض مرافقها. وصارت تُكوّن الأساس الذي تنطلق منه كثير من الرؤى والأفكار والدعوات والجدل الذي يدور في العالم الإسلامي، سواء في طبيعة نظام الحكم السياسي، أم في أسس التشريع والأنظمة، أم في دعوات تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، أم غير ذلك من المجالات. وصاحب دعوات العلمانيين وجدلهم خوض في فقه أحكام الإسلام، وتوجيه مغرض لمعاني نصوص الكتاب والسنة، وتحريف متعمد لدلولاتها الصحيحة.

«وكان من أخطر ثمرات هذا الباب الواسع (العلمانية): دخول القوانين الوضعية، لتحل محل التشريع الإسلامي»^(٢).

وقد بدأت فكرة العلمانية تغزو العالم الإسلامي منذ نحو قرنين، خلال الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، لكنها لم تتمكن إلا قبل نحو قرن، حين طبقت على مستوى الدولة على أنقاض الخلافة العثمانية، ثم سرت إلى أكثر بلدان العالم الإسلامي مع الاستعمار الغربي، وحركة الاستشراق والغزو الفكري، وجهود المنصرّين، والأقليات غير المسلمة داخل العالم الإسلامي. كما تسرب الفكر العلماني إلى بلاد الإسلام عن طريق البعثات الدراسية إلى بلاد الغرب، وتسرب بسبب التعاون في مجال التدريب العسكري بين الغرب

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.

(٢) المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية، عدنان علي رضا النحوي، (الرياض، دار النحوي

للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ)، ص ١٠.

والدولة العثمانية. ذلك كله لا يعفينا من الاعتراف بأن أسباباً ذاتية كامنة في أنفسنا ومجتمعاتنا كان لها أثر بارز لا ينبغي إغفاله، ومن ذلك: الانحراف العقدي لدى المسلمين، وضعف الأمة بسبب بعدها عن دينها، وإغفالها للسنن الكونية في بناء الحضارة، والسير في دروب النهضة، والانبهار بما حققه الغرب^(١).

«وتسلل الفكر العلماني إلى حياة الأمة الإسلامية، وتسرب إلى التعليم والقضاء والتشريع، وأوجد له بين المسلمين دعاة يبشرون به، وينتصرون له، ويملأون وسائل الإعلام بالحديث عنه، تمجيداً له، وحثاً على السير تحت لوائه»^(٢).

وإذا كانت تركيا من أعظم الدول التي أثرت فيها العلمانية تأثيراً بالغاً، فإن هذا التأثير لم يأت في عشية وضحاها، بل تسلل إليها «بهدوء وملاينة، وبشكل لا يثير مشاعر الأمة، بل جاءت مغلفة بالرغبة في الإصلاح، ونقل البلاد إلى الحضارة الحديثة، وتطوير مرافق الدولة بطريقة تستجيب لمتطلبات العصر. وكانت القوانين لا تني تذكر أن دين الدولة هو الإسلام، وأن كل ما تريده الدولة هو الخروج من حالة التخلف والفوضى التي تعانيها، ومن الضعف العسكري والسياسي والاجتماعي إلى القوة والوقوف في وجه الأطماع الخارجية والخطر المحدق بها»^(٣)؛ وما إن تمكنت العلمانية واستحكمت في تركيا حتى أخذت بالمعنى المتطرف للعلمانية^(٤)، وطبقته بقوة وبلا هوادة، فوقفت ضد الدين، وحاربتة، وحاولت هدمه من أساسه،

(١) ينظر: العلمانية وموقف الإسلام منها، أ.د. حمود بن أحمد الرحيلي، ط ٢، (المدينة النبوية، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٤هـ)، ص ٥٧؛ وعلمانية المدفع والإنجيل، ص ٥٣-٥٨؛ ودراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة، ص ١٢٩؛ والنظام السياسي في الإسلام، ص ١٧٠.

(٢) الفكر العلماني في المجتمع الإسلامي، أ.د. محمد رشاد عبد العزيز، ط ٢، (القاهرة، دار المحدثين، ١٤٣١هـ)، ص ٧.

(٣) العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا، عبد الكريم مشهداني، (الرياض ودمشق، المكتبة الدولية ومكتبة الخافقين، ١٤٠٣هـ)، ص ١٧.

(٤) أي: عدم الوقوف من الدين موقف الحياد، بحيث لا تجعله يشارك في الحياة السياسية والاجتماعية، كما أنها لا تحاربه وتلاحق أتباعه، لكنها تطرفت بحرب الإسلام ومضامينه وأتباعه. وقضية الحياد في العلمانية ينقضها تطبيق أهلها في كثير من دول العالم الغربي والإسلامي.

حتى لا يبقى له أثر في النفوس^(١).

ولا يزال العلمانيون في جميع أنحاء العالم الإسلامي ييثون سمومهم وشبهاتهم في الطعن في القرآن الكريم وتفسيره، سواء فيما يتعلق بقواعد التفسير وأصوله، أم فيما يتعلق بتفسير آيات من كتاب الله تعالى^(٢). ولا يزالون يحاربون السنة النبوية، وأقوال الأئمة الفقهاء، وأحكام الإسلام بعامة.

ولا يزالون يعارضون الإسلام، ويقفون ضد تطبيقه في حياة الناس، «فالدعوة إلى تطبيق الإسلام في الحياة -عندهم- هي دعوة إلى الرجعية... وإلى الخيام والرمال والصحراء»^(٣). ويزعمون -بغتائاً- أن الدين سبب تأخر المسلمين، وفقرهم، وجهلهم، وضعفهم^(٤).

ولا يزالون يقومون «في هجومهم المدبر على الأسس الدينية الإسلامية بما تشتمل عليه من الفكر والعلوم، فكل واحد منهم يحاول حفر حفرة في هذا الدين؛ إما في نصوصه الأصلية بالقدح فيها والتشكيك، أو في العلوم والنتاج الفكري الذي أنتجته قرائح العلماء الأجلاء على مدار التاريخ الإسلامي، وهم يتنوعون في الوسائل التي يتبعونها للوصول إلى هذا الهدف، ولكن مهما اختلفوا فإنهم يجتمعون عليه»^(٥).

وللعامل أن يسأل: ماذا جنت الحياة اليومية في المجتمعات العلمانية في الوقت الحاضر؟ وماذا حدث للإنسان بعد قرون ازدهار العلمانية وترعرعها في المجتمعات الغربية؟ سوى ظهور ثقافة شعبية منحطة، وانتشار للعنف، والمخدرات، وأمركة العالم^(٦)، وصرف للعباد عما خلُقوا من أجله، وغير ذلك من الثمار السيئة للعلمانية.

(١) العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا، ص ١٤.

(٢) التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، ص ١١.

(٣) سموم العلمانيين، د. زين محمد شحاته، (الرياض، مؤسسة البشائر العالمية، ١٤١٣هـ)، ص ٧.

(٤) الفكر العلماني في المجتمع الإسلامي، ص ٧٩.

(٥) مقالات نقدية في الحداثة والعلمانية، سعيد عبد اللطيف فودة، (عمّان، دار الفتح، ١٤٣٠هـ)،

ص ٦.

(٦) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١/٩٩.

إن هذه الثمار تجعل العاقل -الذي ليس له دين- يرفض العلمانية، فكيف بمن يدين بدين
الله الخاتم؟

المطلب الثاني : أسباب اختيار الولايات المتحدة والغرب للعلمانيين:

«الولايات المتحدة دولة علمانية، على الأقل في الحكومة»^(١)؛ لأن «الكنيسة هناك لها نفوذ ضخم ومؤسسات في كل مجال، وخاصة في المجالات التعليمية والاجتماعية»^(٢).

وبما أن الديمقراطية الغربية تقوم على الفصل بين الدين والدولة؛ فإن العلمانيين حلفاء طبعيون للغرب في العالم الإسلامي - كما تقول (بينارد)-^(٣)، وهم من أهم الشركاء للغرب في مواجهة الإسلام - كما يقول تقرير (بناء شبكات)-^(٤)، ومقبولون بشدة لدى الولايات المتحدة، وبخاصة لتسلم رئاسة الدولة - كما تقول دراسة (احتلال العراق)-^(٥)؛ لأن العلمنة «ليست تغييرًا وحسب، وإنما أمركة بالدرجة الأولى»^(٦).

وقد تحوّل هذا القبول الأمريكي للعلمانيين إلى خطوات عملية لبداية تحويل مقترحات (راند) في دعم العلمانيين إلى سياسات عامة تظهر على ساحة الفكر والعمل الإعلامي في العالم الإسلامي وفي الغرب أيضًا، حيث عُقد في الولايات المتحدة في منتصف عام ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧ م مؤتمر ما سمي بـ(العلمانية الإسلامية)، جمع عددًا ممن يسمون أنفسهم بـ(العلمانيين المسلمين)، وأصدروا بيانًا أكدوا فيه التوجهات التي دعت إليها (راند)^(٧).

(١) Exploring Religious Conflict. P. 31

(٢) العلمانية للبار، ص ١٣.

(٣) إسلام حضاري ديمقراطي ص ٣٨.

(٤) Building Moderate Muslim Networks. P. 3

(٥) ينظر: Occupying Iraq. P. 323

(٦) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١/١١٦.

(٧) استراتيجيات غربية لاحتواء الإسلام، ص ٤٤-٤٦.

وفيما يلي أهم الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة والغرب يختارون العلمانيين ويدعمونهم:

١- استهداف العقيدة الإسلامية بالإبطال والتحريف:

العقيدة الإسلامية هي الأساس الذي يقوم عليه البناء القوي للمجتمع الإسلامي؛ فهي تحفظ توازنه ونظامه، وتشد المجتمع بعضه إلى بعض؛ وأي خلل يصيب العقيدة فإنه يصيب المجتمع مباشرة ويُفقد توازنه^(١).

وإذا كانت العلمانية تقوم على إبعاد الدين عن الدولة والتعليم والأخلاق؛ فهذه هي الثمرة التي يريد الغرب تحقيقها في المجتمعات الإسلامية؛ وبالتالي يكون الاستهداف الغربي قد وُجّه إلى العقيدة الإسلامية.

«إن العلمانية تنازع الإسلام سلطانه الثقافي، وتسلب المسلمين حقهم في إقامة نظام حياتهم وفقاً للإسلام بوصفه عقيدة وشرعية ومنهج حياة»^(٢).

ولذلك جاءت توصية (راند) بأنه «ينبغي أن تكون الأولوية لتمويل البرامج الثقافية والتعليمية التي تديرها المنظمات العلمانية والمنظمات الإسلامية (المعتدلة)؛ وذلك لمواجهة تأثير الجماعات (المتشددة)»^(٣)، ويعنون بالتشدد: التمسك بالكتاب والسنة.

بل وأوصت دراسة أخرى لـ(راند) بمحاولة التأثير في الدعاة الذين يلتزمون المنهج الإسلامي الصحيح، ومحاولة تغيير فكرهم عن الإسلام، تقول: «أفضل وصفة للعالم الغربي القيام بدعم العلمانيين، والحوار مع الإسلاميين؛ لتشجيع تطورهم في اتجاهات أكثر (اعتدالاً)»^(٤).

(١) جوانب من الغزو الفكري المعاصر، محمد أمين بن إدريس السماعيلي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز-شطر مكة المكرمة، ١٣٩٥هـ، ص ٣٣.

(٢) القومية والعلمانية، د.عدنان محمد زرزور، (عمّان، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م)، ص ١٧٠.

(٣) The Muslim World after 9/11. P. 63

(٤) In Their Own Words: Voices of Jihad. P. 303

وقد ظهر فعلاً قبل تلك التوصية مراجعة لمصطلح العلمانية في العالم العربي؛ مما أدى إلى تصالح بين القوميين العلمانيين وبعض (الإيمانيين)^(١). نسأل الله السلامة والثبات على الدين. إن من عَرَف العلمانية يعلم «استحالة الجمع أو التقريب بين العلمانية والإسلام؛ لأن العلمانية مضادة للأديان عمومًا وللإسلام خصوصًا، حتى لو تشدق أصحابها بالشعارات الإسلامية»^(٢). ف «ليس لها مكان في وجود الإنسان مع الإسلام فإما أن يوجد الإسلام ولا علمانية، أو توجد العلمانية ولا إسلام»^(٣).

وإذا كان قد ثبت توجه (راند) والغرب إلى محاولة تغيير المفاهيم الصحيحة لدى الناس عن دين الإسلام، فإن المطلوب من العلمانيين -خلال دعم الغرب لهم- الإسهام في هذا التغيير.

٢- تشويه صورة الإسلام:

ويتناول هذا التشويه الإسلام بجميع جوانبه، وفي كل ركائزه. وقد قام العلمانيون بمحاولات كثيرة يستهدفون تشويه القرآن الكريم، والسنة النبوية، ونقلتها، والتاريخ الإسلامي، ونظام الحياة الإسلامية، والتراث الإسلامي. وظهرت مقالات تقول على الإسلام، والادعاء عليه. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٤)^(٥).

٣- محاولة السيطرة على مؤسسات التشريع واتخاذ القرار:

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١/١٦.

(٢) التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، ص ٦٦٩.

(٣) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، ص ١٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٥) ينظر: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص ٥٠-٥١.

تهدف هذه السيطرة إلى امتلاك طريق رئيس لتوجيه جميع نظم الحياة ومنظماتها في المجتمع الإسلامي على النمط العلماني. أما التشريع الإسلامي، والاقتصاد الإسلامي، والتنظيم الإسلامي، فتصبح جميعها حبيسة الكتب والمراجع^(١).

«لقد انتقلت العلمانية الأوروبية بحق التشريع من يد الكنيسة إلى يد المجتمع، أو من الكنيسة إلى البرلمان، وما تزال صناديق الانتخاب والنزول عند مطالب الناس تدفع به باتجاه الأهواء والغرائز والشهوات»^(٢).

وتمكنت العلمانية في أكثر بلدان المسلمين من إبعاد الشريعة الإسلامية عن التأثير في جوانب الحياة إلا نزرًا يسيرًا منها، تبقى في أحكام النكاح وتوابعه، ولا تزال تحاول القضاء على هذا الجانب المتبقي، بأساليب متنوعة.

٤- كون العلمانيين يمثلون طلائع الهجوم الاستعماري:

أفصح كبير المنصرين الأمريكي (صموئيل زويمر) عن هدفهم من علمنة المجتمعات الإسلامية، وعن أن دعاة العلمنة هم طلائع الفتح الاستعماري الغربي في الدول الإسلامية، يقول في المؤتمر التنصيري الرابع الذي عقد في مدينة القدس عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م: «إن مهمة التبشير التي تدينكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية، ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام؛ ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة له تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام»^(٣). وهذا ما يقوم به العلمانيون اليوم، ويقوم به غيرهم.

(١) المرجع السابق، ص ٦٨-٦٩.

(٢) جذور الفكر القومي والعلماني، د. عدنان محمد زرزور، ط ٣، (بيروت، المكتب الإسلامي،

١٩٩٩م)، ص ٢٠٥.

(٣) أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، ص ٣١٩.

فقد كانت حركة الاستشراق السياسي الاستعماري موجهة لمعرفة تفصيلات الحياة الاجتماعية للشعوب المستعمرة، مع ما يقوم به الاستعمار من أعمال سياسية وغيرها ورصد فكري، ثم عدل الاستشراق مساره بعد أن دالت دولة الاستعمار، وحل محلها استعمار من نوع جديد، هو: استعمار الفكر؛ للوصول إلى الخضوع السياسي والاقتصادي وغير ذلك، وكانت العلمانية من بين الأغراض المهمة التي أراد الاستعمار بثها بين المسلمين^(١).

٥- تحقيق التبعية الفكرية للحضارة الغربية العلمانية:

هدف الغرب "من الدعوة إلى العلمانية والإلحاح عليها والاستماتة في علمنة الحياة في العالم الإسلامي، هو أن يصبح هذا العالم تابعاً للغرب، يسير في دائرة نفوذه، ويتحرك في ركابه ويدور في محوره"^(٢). «فجميع القوى المعادية للإسلام، أعطت لنفسها -بغير حق- حق اضطلاع بتوجيه شعوبنا، معتبرة ثقافتها النموذج الواجب الاقتداء به»^(٣).

وقد تحولت موجة العداء اليهودية والنصرانية ضد الإسلام إلى موجة حضارية تدافع عن الحضارة الغربية العلمانية، وتسعى إلى تغريب العالم الإسلامي لا بتحويله إلى النصرانية، بل بفرض الثقافة الغربية عليه. وتحولت كذلك الدراسات الاستشراقية من الهجوم المباشر على الإسلام إلى هجوم علماني يسعى إلى نشر العلمانية بين المسلمين، وتحقيق التبعية الفكرية للحضارة الغربية العلمانية. وصارت الاهتمامات الاستشراقية المعاصرة اهتمامات سياسية تخدم أهدافاً قومية من الناحية السياسية، وأهدافاً علمانية من الناحية الفكرية^(٤).

"هذه الحقائق تجعلنا نُصدم بما يقوم به بعض المستغربين والعلمانيين من المتبنين لبعض شعارات الإصلاح في دول العالم العربي والإسلامي، فقد جرى احتلال (استعمار) وعيهم الثقافي؛ ليصبحوا -بوعي أو دون وعي- أدوات ووسائل تنفيذية للشعارات والمفاهيم الغربية وعوامل إضعاف للسيادة الوطنية، وعلى الرغم من كونهم أقلية، إلا أنهم بحكم الرعاية الغربية

(١) ينظر: الاستشراق للشرقاني، ص ١٨٥.

(٢) الفكر العلماني في المجتمع الإسلامي، ص ٧٥؛ وينظر: القومية والعلمانية، ص ١٧٥.

(٣) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص ٦٣.

(٤) أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، ص ٨٦-٨٧.

والدعم السياسي والإعلامي الأجنبي وبعض المحلي أصبحوا (قوة ناطقة)، تعتدي على أصول الأمة الإسلامية وثوابتها وهوياتها الوطنية؛ لتحقيق مشروعات سياسية أجنبية تحت لافتة الشعارات الغربية نفسها: (حرب الإرهاب)، (الإصلاح السياسي)، (مؤسسات المجتمع المدني)، (إصلاح المناهج الدينية)، (حقوق المرأة)، (حقوق الأقليات)؛ وغير ذلك حتى تأكد تناغمهم مع متعصي الغرب^(١).

وهذا ينقل قضية تبني العلمانية في بلدانا إلى مستوى آخر؛ فالقضية تتجاوز أحياناً دائرة الاختلاف في الفكر، لتصب -بوعي أو بغير وعي- في خانة التفريط في الاستقلال، وتقوم بإعلان التسليم والاستسلام للإرادة الغربية في استلابنا واحتوائنا وإحاقنا بنموذجه الحضاري في الإدارة والحكم والتشريع^(٢).

(١) القطاع الثالث والفرص السانحة، ص ٤٨.

(٢) الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، د. محمد عمارة، (القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٣م)، ص ٤٤؛ وعلمانية المدفع والإنجيل، ص ٧٩.

المطلب الثالث : حماية العلمانية:

سواء وصل العلمانيون إلى سدة الحكم أم لم يصلوا، فإن حماية العلمانية باعتبارها الأساس الذي تقوم عليه أنظمة الدول الإسلامية أمر مطلوب غريباً، وقد أوضحوا الأسس التي تحمي العلمانية في نظام الدولة، وبخاصة إذا تسلم رئاسة الدولة أحد الأحزاب الإسلامية. وأهم تلك الأسس أساسان:

الأساس الأول: الحماية القانونية، من خلال الدستور والتشريعات القانونية. وقد مضى بيانه في مبحث الشريعة الإسلامية.

الأساس الثاني: الحماية العسكرية للنظام العلماني:

تقول دراسة (العالم الإسلامي بعد ٩/١١): «تمثل المؤسسات العسكرية في تركيا وإندونيسيا الركائز المهمة لمؤسساتها السياسية العلمانية؛ لذا فالعلاقات العسكرية سوف تحتل أهمية قصوى لأية استراتيجية أمريكية في العالم الإسلامي»^(١).

ويشير (ستيفن لارابي) إلى أن الجيش التركي ظل خلال سبعين عاماً ماضية حامياً للديمقراطية والعلمانية، ويمارس مهاماً قوية خلف الستار، فيتدخل عندما يتعرض الفكر الديمقراطي أو العلماني للتهديد، فالجيش لا يزال يعدُّ نفسه حامي حامي العلمانية في تركيا^(٢). وأشارت بعض دراسات (راند) إلى بعض الجيوش التي تُعدُّ مراقبة لالتزام الحكومة بمسار علماني في البلدان الإسلامية، وهي: الجيش التركي^(٣)، والجيش الباكستاني^(٤)، والجيش الجزائري^(٥).

(١) The Muslim World after 9/11. P. xxvi

(٢) Turkey as a U.S. Security Partner, F. Stephen Larrabee, (Santa Monica, Rand, 2008). P. 31.

وينظر أيضاً: P. 36 The Rise of Political Islam in Turkey.

(٣) Turkey as a U.S. Security Partner. P. 5

(٤) U.S.-Pakistan Relations. P.1

(٥) ينظر: P. 4, 94, 97, 99 Algeria: The Next Fundamentalist State?.

ولا يُستبعد أن تنجرف كثير من الدول في هذا المسار، لا سيما أن هناك إلحاحًا أمريكيًا أظهرته بعض دراسات (راند) بالعمل على توثيق العلاقات العسكرية مع بلدان العالم الإسلامي^(١)؛ فمن المحتمل أن تكون هناك محاولة بصبغ الجيوش في العالم الإسلامي بالصبغة العلمانية، أو على الأقل التأثير في بعض القيادات العسكرية.

أما سبل مواجهة العلمانيين فتنبط عليهم نفس سبل مواجهة المخالفين لمنهج أهل السنة والجماعة، التي جرى بيانها في المبحث السابق^(٢).

لقد قام العلمانيون في السابق بأعمال مشينة في بلدان المسلمين، واجتالوا كثيرًا من شباب المسلمين عن الصراط المستقيم، وهم مع الدعم الغربي الجديد سيزداد شرهم، ويعظم خطرهم، بما يستدعى قوة في الوقوف أمامهم، وتكثيفًا لجهود العلماء والدعاة في مقارعتهم والرد عليهم، وإبعادهم عن مراكز القرار والتشريع والتأثير.

(١) ينظر: The Muslim World after 9/11. P. xxvi

(٢) ص ٥٥٠-٥٧٣.